رجل صغير

للأستاذ ثروت أباظه

رجل ، إذا كانت معالم الرجولة شارباً ضخماً وجسماً عريضاً . غني ، إذا كان الغنى مالا وقيرا وبسطة في الرزق . ذوسلطان، إذا كان السلطان خنوع الآكلين من يده وخضوع الطامعين فيه . ولكنه طفل إذا كانت الرجولة اتساعا في الأفق وبعدا في النظر وتجربة في الحياة . وهو فقير إذا كان الغنى تقديرا للمال وانفاقا له في أوجهه ، وإذا كان الغنى أن يبسط الانسان يده فلا يغلها إلى عنقه حتى ليكاد يختنق بها . وهو تابع ذليل إذا كان السلطان قوة في الشخصية لا في النفوذ، وصلابة في الجليل من الأمور لا التافه منها .

مسكين هو ! وهب الله له من أسباب الرجولة والغنى والجاه ما يتمنى كل انسان أن يوهب ؛ ولكن ماذا يفعل ؟ مات أبوه وهو لم ينل من الثقافة إلا حظا لا يقيم للعقل أودا ، فانحرف به تفكيره عن أن يكمل ما يجب أن يسير فيه ، وأعماه الغنى المريض الذى ترك له عن الفقر المدقع الذى ينحط فيه عقله فصار كذلك ... رجلا وهو طفل ، غنيا وهو فقير ، ذا سلطان وهو عبد .

هو ضيق العقل بطبيعته، وقد زادته ثقافته المبتورة ضيقا ، فهو لا يكاد يفعل أمراً إلا ليدل به على الغباء العميق والفكر الضحل . ولعل هذا داعية إلى بخله الشحيح على غناه الواسع ، فتراه يعد للاقتراض يده وفي وسمه دائما أن يمدها إلى جيبه . وغباؤه هو وسيلة أصدقائه اليه فهم يسخرون منه في أنفسهم ، وينفذون من غبائه إلى ماله فيعيشون على مديحه ، يأكلون من ضعف نفسيته وشعوره بما هو فيه من نقص.وهو منقاد لهم، ويفهمونه أنه قائدهم، وعلى الرحب منه يفهم ! رجل طفل ، غني فقير ، سيدعبد .

عرفته حين كان لا بدلي أن أعرفه، فهو زميل المكتب الذى لا بد له من اثنين ليجلسا اليه ... كان معي في المدرسة الابتدائية، ولاحقني إلى المرحلة الثانوية، وانقطع عن الدراسة في منتصف الطريق.وذهب إلى أملاكه الواسعة ولكنه داوم على الاتصال بي، ولعلي الوحيد من القرين يعرفهم ويصر على معرفتهم دون أن

فتقررت على تلاميذ الفرقتين الأوليين من المدارس الثانوية منهاجا في الأدب كفن تعرض فيه النصوص من القرآن الكريم أو السنة الشريفة أو شعر العرب ونثرهم في مختلف العصور ، ثم تناقش هذه النصوص مناقشة شرح ودراسة وتحليل، ثم تستنبط منها بعد ذلك الظواهر الأدبية ، وهي طريقة استقرائية ناجحة، وهي وحدها التي رآها كبار الأدباء جديرة بالدراسات الأدبية الفنية ، إذ فيها يعود الطالب على حرية الرأى ، والاستقلال في الفهم ، وتعينه على الملاحظة والنظر الصحيحين ، ثم على الذوق والاستنباط ؛ تغرس فيه حب الاطلاع على كنوز الأدب الزاخرة في مختلف العصور . لو بقيت هذه المناهج ، لحققت لنا ما نصبو إليه من سلوك الاتجاهات الحديثة في دراسة الأدب ونقده ، نعم، لم تبق هذه المناهج بل عصفت بها الأهواء كما تعصف بكل مشروع نافع ، فمحيت هذه المناهج من الفرقة الثانية وأعيدت إليها المناهج الأولى الجافة التي لا تمت مطلقا إلى الأدب بصلة، وبقيت في السنة الأولى ، إلا أنها بقيت فقط في المنهاج ، فلم توضع لها كتب يستضيء على ضوئها المدرسون . فانتهز بعض محترفي التأليف في الكتب المدرسية هذه الفرصة ووضعوا فيها مذكرات أقلها كان جيداً ، وأكثرها كان تافها قصد أصحابها من ورائها الربح المادي ، فألفوها على عجل ، وطبعوها على عجل فجاء الكثير منها فنا ممجوجا ...

ومن الغبطة أن نذكر هنا أن أول من نادى بهذا الرأى في دراسة الأدب وجاهر به في كتبه ، ودروسه ومحاضراته هومعالي وزير المعارف الحالي الدكتور طه حسين بك ، وما دامت الفرصة قد سنحت له لتحقيق آرائه ، والأمر أصبح في يده ، فمن حقنا عليه ، بل من حق كل ناطق بالضاد عليه أن يذكره بذلك ليعيد النظر في مناهج الأدب المدرسية ، حتى تصاغ هذه المناهج على صورة نافعة ترضي الأدب أولا ، فيرضى عنها الأديب ثانيا ...

عبد الجواد سليمان

المدرس بمعلمات سوهاج

ينال مديحا أو اعجابا . عرفت ما ينقاد اليه ، ورأيت اصراره على صحبتى فوجدت حتما على أن أنبه من غفلته فنبهتها ولم تنتبه، وظننت بعدها أنه منقطع عن صحبتى الناقدة البغيضة ولكنه أصر عليها فأصررت على التنبيه .

غاب عن لقائى أشهرا طويلة فحمدت الله فى نفسى، فليس أثقل على من أن أواجه مخطئا بخطأه، ولا يسعنى أن أسكت وشخص يعتبرنى صديقا يتردى فى هاوية بعيدة لا أعلم إلى أين تنتهى به .

كان والده رجلا عظيما على أوثق صلة بكبار القوم، وقد استطاع هو أن يصل إلى صحبة هؤلاء عن طريق أبيه فأكرموا فيه ذكرى والده، واستطاع أن ينفذ من أبواب الحكام الموصدة فكان يقضى هناك أمورا . كان لابد لأصدقائه أن يعرفوا أيضا هذه المكنة التى بيد صاحبهم فاستغلوها منه وصاروا يرجونه أن يتوسط ليقبضوا هم الثمن. وبلغتنى هذه الأنباء فى الشهور التى انقطع عني فيها، وأخبرنى من أبلغها أن الثمن يصل فى النهاية إلى جيبه هو .

ألمت للوالد الكبير، يقضى عمره ليحيط اسمه بالسمعة الشريفة، ويقضى نحبه فيلوث الوارث السمعة..ألمت وحمدت الله ثانية أن انقطع عنى فلم تصبح ثمة صداقة أنا ملزم أمامها باخلاص النصح وازجاء النقد

ولكن لا .. إن الصديق لم ينقطع عن عزوف . ولكنها مشاغل بين صحبة شريرة وعمل غير كريم — لم تكن صداقة مقطوعة ولكنها كانت صلة موقوفة .

قصد إلى حيث يجدنى ... على وجهه من الأسى أمارة ومن الغباء أمارات

— سلام عليك!

— وعليك — خيرا أفراغ جئت تملأه بهذه الجلسة

— بل هم جئت أجلوه بالجلوس اليك

عفوا ... منذ متى أزيل أنا همك ... اذهب إلى أصدقائك واصحبهم إلى ليلة معربدة ينطاقون بمديح يبدل همك أفراحا ... خبرنى بربك — ألا تمل المديح ؟

— أراك قاسى القلب .. حزين يقصد اليك فتسخر منه

— لا والله ما اليها قصدت ولكننى أسأل مخلصا فى السؤال ألا تمل المديح ؟

— ألا تسأل عما أنا فيه .. أليس ذلك أولى بالصديق ؟!

— أتعرف الأولى بالصديق..أتعرف الصديق الأولى بالصديق أن يسمع النقد ولو على مضض ، والأولى بالصديق أن يمحص القول وينعم فيه النظر .. أجل أعرف انك على كره منك تجلس وتسمع، وأنا أيضا على كره منى أقول وأطيل، فانه يؤلمنى أن يستغل اسم أبيك فيما يستغله أصدقاؤك .

— ماذا سمعت؟

— سمعت ما تعلم أنه يحدث وتمكت عنه لتنال ما ينهالون به عليك من مديح تعلم أنت فى بعيد نفسك أنه كاذب

— اذن فلهذا طردت

— طردت !

— أجل ذهبت اليوم لأقابل السيد بك .. صديق أبى .. نعم انك تعرفه ويعرفك ، وأخبرنى سكرتيره أن لديه أمرا يمنعنى من الدخول

— ولن تكون الأخيرة

— فماذا أفعل ؟

— أعيد ما أعدت ؟— أقص السوء من أصدقائك ، وأصح. تنقذ ما بقى لك من أبيك

— انها لم تنقص

— بل كادت تضيع — كانت ثروة ضخمة

— أى ثروة تلك .. أنا لم أفقد فدانا واحدا

— وهل هذه ثروة .. كانت سمعة كريمة فلوثتها.. ادركها.. ادركها فانها لا ترجع إن ضاعت، وقد ترجع الأفدنة

— أنت تعلم أننى لا أمد يدا لرشوة

— بل تمد أيادى لا يستطيع شخص واحد أن يعدها .. إنها أيدى أصدقائك جميعا .. تمد باسمك ، وباسمك تنال ما تنال واسمك هو المهان .. اقطعها وإلا ضاع بناء بناه أبوك جميعا ..

-- أنت ما تزال ناقدا . ما ذنبي أنا به

نعم .. لا ذنب لك .. سبحانه يعطى الغباء لمن يشاء من عباده وقد خلقك غباء لا يفهم وجمادا لا يحس..قم أيها الرجل .. لا ـ لا تقم .. بل أقم كما أنت فانى أنا الذاهب واحذر بربك أن أراك فأطيق .

وانصرفت .. لقد بذلت جهد الصديق وجهد السليط ولم أفلح ولن أفلح..ما حيلتى؟. هكذا هو ..فتى فقير.. سيد عبد .. رجل طفل .

ثروت أباظة